

نيتشه قارئاً أوغسطين

قراءة للكتاب الثالث عشر من الاعترافات

قواسمي مراد

مخبر: البنيات، الأنساق، النماذج والممارسات.

أستاذ محاضر بجامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.

4. ألم يكن الآب و الإبن يرفرفان

فوق المياه أيضاً؟

5. كيف صرنا نورا.

6. اليابسة: الخير.

7. الحكمة أسمى من العلم.

يحمل هذا الكتاب طابع الإشراف المسيحي، الذي يعتمد على التوفيق بين العقل والنقل، وما يدل على ذلك توظيف أدلة من النصوص النقلية القديمة لإثبات الأحكام العقلية وتزكيته وإعطائها مصداقية دينية، مما يجعل الكنيسة ترحب بها ولا ترفضها، ومن أهم النصوص الدينية التي اعتمدها "أوغسطين" نجد الأسفار التالية:

1. إنجيل مزمور:

((7:35)/((8:41))

(21:38).

2. إنجيل رومية:

((5:5)/((2:12))

((2:12)/((2:12)/((2:12))

(5:5).

3. إنجيل يوحنا: (1:9).

4. إنجيل كور:

((1:3)/((22:14))

((12:5)/((2:11.12)).

5. إنجيل غلاطية:

(12:4).

يحمل موضوع الدراسة عنوان "فعل الشكر" وهو عبارة عن مناجاة أوغسطينية للنفس التائبة/النادمة التي أدركت خطاياها، وتحاول إصلاحها وتجاوز واقعها إلى الأفضل، إنها صيرورة الندم وتراجيديا الحياة في شكل "اعترافات *des confession*" بالخطايا.

يصنف "أوغسطين" كتاب "فعل الشكر" ضمن الكتاب الكلي. الاعترافات. في آخر مرتبة، أي في الموقع الثالث عشر من ناحية الشكل، وقد جاء كتتويج للكتاب عموماً، إذ من المنطقي أن يتوجه الإنسان إلى ربه بالشكر بعد إنجاز عمل وإكماله على الصيغة التي أرادها، وهو بعد الكتاب الثاني عشر الذي يحمل عنوان: "شرح مقاطع من سفر التكوين".

يقع هذا الكتاب في ثلاثة وثلاثين صفحة، من الصفحات ذات الحجم الصغير [عدد صفحات الكتاب عموماً هو 327 صفحة] أما عن البنية الداخلية، فإن الكتاب الثالث عشر مكوّن من قطع مشابهة للشذرات، ولكنها مترابطة فيما بينها بطريقة نسقية، تحمل عناوين على شاكلة أفكار عامة لها، وهذه العناوين هي كالتالي:

1. فعل الشكر.

2. سام، منذ البدء، و لذا كان

يرفرف فوق المياه.

3. ليكن النور.

6. سفر يوشع بن سيراخ:
(19:3).

7. سفر التكوين:

(29:1).

8. سفر فيليبي:

(10:4)/(4): 11 .

(15:4)/(13).

9. سفر كولور:

(10:3)

10. سفر متى :

(20:10).

وقد ظهرت هذه الأسفار على الترتيب ذاته، وعلى كل يبقى يراودنا سؤال أساسي هو لماذا التوقف عند الرقم 13 والاكتفاء به؟ هل هناك خلفية فكرية أو دينية أم هو توقف اضطراري واعتباطي؟ يبدو أن لهذا العدد [13] سرا، وسرا مخيفا على الأرجح، إذ نجد العديد من الناس وإلى عصرنا الحالي يتشاءمون منه، في حياتهم العادية، ففي الفنادق يتحاشى أصحابها ترقية إحدى الغرف بالرقم ذاته للنازلين، بل هناك تجاوزا لهذا الرقم من غرفة 12 إلى 14 مباشرة، ولعل ذلك يرجع إلى التأثير الذي يسري في المعتقد المسيحي، من كون أن أصحاب المسيح، وهم الحواريون كان يتكون تعدادهم من ثلاثة عشر حواريا/تلميذا، حافظ اثنا عشرة منهم على عهد/سر المسيح، بينما خان التلميذ الثالث عشر العهد وبسبب من هذه الخيانة صلب المسيح وخيل لهم بأنه مات، وبهذا نشأت عقدة من هذا الرقم، ولكن على ما يبدو أن "القديس أوغسطين" أراد أن يتجاوز هذا المعتقد، فتوقف عند الرقم ثلاثة عشر، وبذلك يعلن أنه لا يخشى المعتقدات الفاسدة والأباطيل والأحكام المسبقة وهنا نسجل له تحرره العقلي

من العموميات، وبسبب من هذا كان اختيار هذا الكتاب بالذات دون غيره.

لماذا الاعتراف في الاعترافات...؟!

هو أولا وقبل كل شيء اعتراف تبريري غير بريء من منفعة، يرمي من وراءه إلى إثبات جدارته وأحقية بكرسي المعمودية، حيث بدأ جمهور الدونانتيين بالتساؤل عن أصل هذا الرجل، والتشكيك في قيمته، فجاءت "الاعترافات" لإسكات كل إشاعة عن أصل الغريب، وقطع قول كل خطيب، وتأكيد مقدوره ضمن أي نصيب.

يختلف كوجيتو "أوغسطين" عن كوجيتو "ديكارت"، إن صح التماس هذا الكوجيتو، تحت عبارة "أنا أخطئ إذا أنا موجود" فهو لا يمنح عبره فقط المشروعية للخطأ، بل والأهم من ذلك هو أنه يدل به على ما هو متضمن فيه، وهو إمكان التوبة، والندم، والرجوع إلى الأصل، إلى الله، إلى المسيح كما هو ثابت في اعتقاد المسيحية، إلى الإله الابن، وهاهو يعبر عن ذلك بقوله: "...ينطق المرء بهذا كله ليعوض عن اللجة التي يتخبط فيها العالم وعن الجسد الأعمى الذي لا يدرك الفكرة الخالصة، بل يستعمل أصواتا ونبرات تؤثر على السمع".⁽¹⁾

هذه الأصوات تؤثر على النفس الداخلية للإنسان، تقيم فيها قيم الشفقة والرحمة، عبر مونولوج تراجيديا الندم وفعل التوبة اللذان يغلفهما فعل الشكر بطبقة عميقة من المفاهيم المسيحية المتراوحة بين الإيمان المسيحي والعقل الأفلاطوني اللذان يتقاربان في أغلبية الأحيان، هذا إن لم نقل أنهما متماهيان، يقول "أوغسطين": "لم تحزنين يا نفس وتضطربين، ضعي رجاءك بالرب كلمته سراجا لقدميك...حتى يمر الليل أبو الكفرة وينقضي

غضب الرب الذي كنا أولاده يوم كنا ظلمة...".
(2).

يفضح "أوغسطين" نفسه حين ينتظر انقضاء غضب الرب، لذا فإننا نذهب مباشرة إلى القول أنه إن لم تكن هناك الخطيئة. لا الخطيئة الأصلية التي يعتقد بها المسيحيون. وهي مرحلة الشهوات والملذات والتي دامت مدة ثلاثين عاما من عمره، فما كان هناك اعتراف، لذا يبدو أن الاعتراف ليس اعترافا لذاته وإنما هو اعتراف لشئ ما، وذا الشئ هو قصد المحافظة على كرسي المعمودية، بل والحفاظ عليه أطول مدة ممكنة. ضف إلى ذلك أن مسألة إثبات الذات يجب أن تكون بإرساء وتكريس قيم القوة والإبداع، وإنما اتجه "المعترف" إلى إرساء قيم الضعف والانحطاط والسلبية، و ذلك برواية مواقف أكل الدهر عليها وشرب، وإحيائها.(3).

تلكم هي الاعترافات الأوغسطينية التي ما فهمت إشكالية البحث عن الذات وراحت تبحث عنها في عصر الظلمات، واعتبرت الضعف إبداعا، والقوة المبدعة ظلما، وكرست ثنائية (الروح/الجسد) وأهملت الطرف الأخير من المعادلة.

يمثل كتاب "فعل الشكر" نموذجا رئيسا، بل وتنجيحا للمهمة التي كلف "أوغسطين" نفسه بها، حين لاحظ الخطر الذي يحوم حوله، وقمة الاعتراف عن قصد وغاية ما ورائية غرضها حمل ضعاف النفوس من البشر على الاعتراف بخطاياهم في الحين الذي لا يخلو فيه هذا الفعل من براغماتية الموقف المتمثلة في الحصول على الثواب، وحمل الآخرين على الاقتداء به، فيغدو بطلا من أبطال المآسي الكونية تحت شعار "ضياء الإنسانية".

هل أوغسطين... أفلاطوني؟!!!!

"...هناك طريقة شرقية شاذة/خارجة عن الأسس مثلما هو الحال لدى العبد (L'esclave) المتحرر أو المعتوق من الخطأ، مثلا، "القديس أوغسطين Saint Augustin" الذي تنقصه النبالة في مواقفه ورغباته، يذهب إلى أن يغدو مهانا/منحطا، ذو نعومة وشوق (ardeur) أنثويان، مليئان بالخلج والتجاهل، يوحيان باقتران الزهد والطبيعة Une unio mystica et phisica...".(4).

ليس هناك أدنى شك في أن القديس أوغسطين نوع من الأفلاطون. لماذا ؟

إذا كان "أفلاطون" هو مبتكر المسيحية، قبل ظهورها في التاريخ، و"أوغسطين" هو الذي حاول تقديم قراءة مسيحية للفلسفة بعامة، فإنه مسيحي بالتالي، وهذا ما نقرأه في الكتاب "الثالث عشر" من مؤلفه "الاعترافات" والذي يحمل كعنوان "فعل الشكر". يدور هذا الكتاب حول مفاهيم متعددة، منها الشكر، الذي يحتوي ضمنيا الاعتراف بفضل الآخر، و بالتالي عجز الذات الأوغسطينية عن إثبات ذاتها. لقد احتاجت الذات الأوغسطينية إلى مصدر متعال Sublime خارج ذاته، لا لشئ سوى لأنه شعر بالذنب، والعجز، فحاول إقصاء الجسد والاقتياد نحو أوهام الروح وهذا ما بقي من آثار ومخلفات وأطلال أفلاطونية في الفكر الأوغسطيني، إن لم يكن أفلاطونيا برمته.

إذن في جينالوجيا "الزهد" أو "التصوف" الأوغسطيني نجده يكاد لا يخالف مرجعية ذلك الموقف الذي يتبناه "أفلاطون" بكل رحابة صدر، ليترد كل ما هو ذو مصدر جسدي، حسي، باحثا عما يشفي عطشه وشوقه، فاليد هي رمز

الخطيئة "يا رب لقد غفرت آثامي كيلا تقاضيني، بسبب أعمال يداي اللتين أبعدتني عنك".⁽⁵⁾ ولكن بمجرد التخلص من تلك الآثار، فإنما يخدم نفسه بنفسه "علي أن أخدمك و أكرّمك، لكي أحصل على سعادتي، يا من خلقتني للسعادة".⁽⁶⁾

أسلوب صوفي محض، يرى في خدمة الإله سبيلا في تحصيل السعادة، من منطلق الإيمان بها، ولكن كحكم مسبق، وهذا هو الخطأ الذي ينبه إليه "نيتشه" العديد من أناس الفلسفة، لأن مفهوم الفيلسوف لا يجب أن يكون إلا لمن يعمل كطبيب للحضارة أو بالأحرى الإنسان الفنان (Le philosophe-artiste) الذي يحتضن الحياة بذراعيه، لا ذلك العدمي الذي يهرب من آلامها، ومن آلام الجسد، فما هو يبحث في جينياولوجيا إقصاء الجسد، الجسد كغريزة، الجسد كشهوة. والجسد كمصدر للحياة، يصبح عند "أوغسطين" شهوة لحمية مثيرة للاشمئزاز تؤدي بصاحبها إلى أسفل سافلين "ولكن لمن أقول، وكيف أعبر عن ثقل الشهوة اللحمية التي تجرنا إلى أسفل اللجة؟... إلى من أتحدث عن هذا الثقل؟ وبأي كلام؟".⁽⁷⁾

وما كلامه الذي يتردد كرنين جرس الكنيسة المزعج، سوى صدى لكلمات "أفلاطون" عن ثنائية العالمين: (عالم المثل/عالم الحس) "إن عواطفنا وإحساساتنا، وعقلنا الفاسد، يجعلنا نرزح تحت ثقل الهموم المسيطرة علينا، أما قداستك فإنها ترفعنا، إلى فوق، بسبب تعقلنا الشديد بالطمأنينة التي نستمدّها من فوق، كي ترفع قلوبنا إليك، حيث كان روحك يرفرف فوق المياه، سنبلغ الراحة التامة يوم تجتاز نفسنا تلك المياه الوهمية".⁽⁸⁾

إن التعقل الذي يبحث عنه "أوغسطين" لم يأت سوى نتيجة لتأثره بالمثالات وتغلب الإغراق فيها على روحه، فمنعه ذلك من مواجهة مصاعب الحياة. هنا La vie-là وراح يبحث عن الحياة. هناك L'au-delà.

إن نموذج "المثال الزهدي" هو ما يعبر به "نيتشه" بكل سخط تجاه من يكرس حياته بحثا عن الراحة التامة وفق آلية الشعور بالندم. أجل هو ذا العامل الأساسي الذي يرهق "أوغسطين" وأمثاله، إنه الشعور بـ"الخطيئة الأصلية" لذا يعمدون أبناءهم حتى يتخلصوا من نجاسات، بل من أعباء وأثقال الخطيئة التي تمتطي أكتافهم منذ أن يولدوا إلى أن يشيخوا، وهم يعيشون حياة قلقة ملؤها الخوف والتسليم بالقدر، وذلك ما تفصح عنه عبارته "...العقول القلقة التي سقطت فتعرت من ثوب نورك...".⁽⁹⁾

في البدء كان الظلام، هذا هو مضمون كلام أوغسطينوس، والبدء هنا لا تقصد به بداية الخليقة بقدر ما هو بداية حياة الإنسان كفرد فعال في صيرورة الديانة المسيحية. خطاب قلق إزاء مصير الإنسان المسيحي. ذاك بالفعل ما تحيلنا عليه عبارات "أوغسطين" الأفلاطونية بالدرجة الأولى، وهذا ليس بغريب ولا بعيد عن إنسان مسيحي امتهن المسيحية (أي أوغسطين) وعن مسيحي قبل المسيحية (أي أفلاطون). كل كلامه عن: التعالي/ التسامي/ النور/ الراحة/ الندم/ الثبات الأبدي/ المدينة السماوية/ الخلاص/ العالم العقلي/ المحبة/ الروح.

لننصت لهذه الكلمات التي تزرع في الأذن طيننا قاتلا: "أجل يا إلهنا أنت تضيء ظلامنا/ ضيقي خارجي وباطني وكل ما عداك من غنى وثروات فقر وفاقه/ خطأ...يرفع روحك القدوس

حقارتنا...".⁽¹⁰⁾ فالوجود زيادة على أنه جريمة هو خطيئة وذنب، كتهمة الأم حينما تقول "هذه غلطتك". الأم، الأم، الأم، يقول فاوست. هذا هو أسلوب "أوغسطين" برغم جمالية شكله، إلا أنه مزعج ضمناً، وحتى نميز جيداً، فإن جل هذا الأسلوب مقتبس من العبارات الأفلاطونية سابقة الذكر.

أوغسطين: المتوحد والمثال الزهدي:

"...تلمس الشروط الملائمة لروحانية متعالية...يعني محاولة ببذلها المرء ليكون "مفرطاً في الطيبة" بالنسبة لهذا العالم، شكلاً مقدساً من أشكال الضجور، سلاحهم الرئيسي في صراعهم ضد الألم البطيء والضجر. وهو يعني عند الكهنة الإيمان الكهنوتي الحقيقي، أداة نفوذهم المفضلة أيضاً رخصتهم العليا التي تخولهم الوصول إلى السلطة. وهو أخيراً عند القديسين ذريعة للنوم الشتائي، راحتهم في العدم(الله) وتجلي عتھم وداءهم العقلي".⁽¹¹⁾

يحكم التصوف الأوغسطيني منطق واحد ووحيد هو منطق الارتقاء من عالم الظلمات الذي يعتبر بمثابة "الزمن المندس" في تاريخ الإنسان كفرد، أما "الزمن المقدس" فهو زمن العقل، لا زمن الجسد، الذي سنطلق عليه مفهوم المثال الزهدي *L' idéal ascétique* فما الداع إلى مثل هذه الميولات المثالية ذات المرجعية الدينية؟

البحث عن الملاذ...! تلکم هي الفكرة الرئيسية التي يقوم عليها المونولوج الأوغسطيني في كتاب "الاعترافات" وما هذا الملاذ إلا موهبة الاعتقاد بالحقيقة، وبأنها متعالية على الإنسان، ومن ثمة السعي وراءها "نطلبها منك ونبحث عنها فيك ويجب أن نقرع بابك...وينفتح بابك أمام وجهنا".⁽¹²⁾

أما عن السبب في الميل كل الميل نحو ذلك الاتجاه هو البحث عن الراحة والهيام في قداسة "الإله" اللامتناهية، لذلك فإن هذا الهيام والشوق لا يكون إلا من أجل حصول المرء على سعادته الأبديّة، طمعا في الجود الإلهي شاعرا بالنقص فهو "ليس مساوياً لك وإن انبثق عنك" إذ أنه لما كان "الكائن بذاته" هو موضوع السعادة فكان بالتالي هو الكمال والضياء عينهما، وهو يعطي أفضلية الروحي على الجسدي، لأن هذا الأخير في نظره وفي نظر كل المسيحيين هو العلة الأولى للوقوع في الخطيئة وبالأخص الخطيئة الأولى، فالجسد ليس مجرد كومة من اللحم فحسب، بل هو مجموع الغرائز والشهوات والميولات وتلكم هي الماورائية الجسدية التي تتسبب في رفضه على الدوام من طرف ذوي النزوع الروحانية الارتقائية، ولا يرجع هذا إلى "أوغسطين" فحسب، بل يمكننا أيضاً أن نستقرأ عبر عصور خلت، تلك العصور التي كان فيها المكسب لصالح الروحانيين على حساب الجسد، مع سقراط المصاب بفوضى الغرائز فقد انتهى وتحطم كل شيء حينما أعلن هذا الأخير اغتيال الجسد اغتيالاً حاقداً على الرغبات الإنسانية، لقد دعا كبتها وقمعها بدلاً من تحريرها وجعلها تنفتح على الإبداع، فبالجسد نمشي وبالمشي إنما نفكر وبالفكر نبدع، بالجسد يتسلق زرادشت الجبال الوعرة والصخور العالية، ويتجاوز هندسات المدن ومعمارها. لقد فرض على الخليقة..أن تتجه نحو خالق الحياة حتى تستمد حياتها وجمالها من نوره، وتتكون فيما بعد..سماء لتلك السماوات".⁽¹³⁾

هذه دعوة صريحة إلى التعالي عن عالم الأرض، عالم الإنسان، بل عالم الظلمات إلى عالم النور والسموات العليا حتى لا يتلقى علومها باطله، علومها دنيا، وبلاشتياق وحده يمكنه أن يصل إلى الإله الحي، إلى ينباع المياه الحية، فيصرخ "متى أصل إليها ؟" ويلقي بهذه الكلمات إلى الغمر الأسفل قائلا "لا تتشبهوا بهذا الدهر، بل تجددوا بعقولكم/ ولا تكونوا أطفالا بعقولكم بل كونوا أطفالا في الشر كي تكونوا كاملين بعقولكم".⁽¹⁴⁾

ما ليس أفلاطونيا في أوغسطين...

يبرر "أوغسطين" عبارته التي يوردها في الأسطر الأولى من الكتاب الثالث عشر من كتاب "الاعترافات" وهي "أنت سابق لي في الوجود" بشتى التبريرات وبهذا يدخل مبحث "الأنطو . ثيولوجيا" من بابه الواسع ومن مدخل أفلاطوني، فهذه المسألة تؤكد أزلية الذات الإلهية بقدر ما تؤكد زمانية الذات الإنسانية être humain La temporalité de l' إذ أنه لما كان الإنسان لم يوجد بعد فقد كان على شاكلة هيولي، خالية من الصورة، أي أنه كان مادة بلا شكل، وذلك باعتراف منه ذاته، بالنظر إلى النزوع الأرسطي القائل بالهيولي والصورة فيقول لاحقا "...وبدون كلمتك لا يمكن لهذه الكائنات أن تأخذ صورة وشكلا، ولو لم تدعمها كلمتك إلى وحدانيتك وتعطها شكلا من يدك... لبقيت محرومة من كل شكل وصورة... فأعطيتها الوجود اللاشكلي".⁽¹⁵⁾ وتلك هي الهيولي.

يحصل هنا تقاطع كبير مع الاعتقاد الأفلاطوني الذاهب إلى أن الأرواح الإنسانية كانت موجودة قبل حصولها في عالم الواقع

كتعينات جسدية على هيئة مادة ذات صور متنوعة باختلاف الأجناس البشرية، وتلكم هي نظرية التذكر الأفلاطونية، غير أن الاختلاف بينهما هو اختلاف في المفاهيم، إذ استخدم "أرسطو" "الهيولي" و"الصورة" و"أوغسطين" "الروحي" أو "الوجود اللاشكلي" و"المادة الجسدية".

لقد كانت النفس الإنسانية مغمورة بالظلمة منذ بدايتها/بداية خلقها ولكن بمجرد حلول الكلمة فيها حتى أصبحت نورا وأصبح وجودها جميلا، لأن الكلمة هي "الخير" الذي يفيض بالسعادة على الإنسان ويشعره بضرورة التوجه نحو الكمال، لننصت إلى العبارتين:

«من ملء جودتك يستمد المخلوق وجوده ليصبح ذاك الخير الذي لا يفيد منه شيئا، ليس مساويا لك، وإن انبثق منك، طالما يستطيع أن يتخلى عنك» / "...فكرة الخير تعطي الحقيقة للأشياء الممكن معرفتها للذهن القدرة على المعرفة...إنها سبب استيعاب العلم والحقيقة...ولكن...فكرة الخير تتميز عنهما وتتجاوزهما جمالا، ولن تنخدع".⁽¹⁶⁾ فبالخير يفيض الله الكامل الخير على الإنسان الناقص، فيمنحه فيضا لا في الخير فحسب، وإنما في العلم والسعادة، وكل ما هو ليس شرا لأن الخير هو الضالة المنشودة لكل نفس.⁽¹⁷⁾

إن الانتقال بالنفس إلى معرفة الخير هو الفكرة التي تمثل حبل التواصل والاتصال بين "أوغسطين" و"أفلاطون" ولكن ما أوجه الاختلاف بينهما؟ أي هل المعرفة الإشراقية مفهوم واحد لكليهما؟

يبدو من خلال قراءة "أفلاطون" أن المعرفة بوصفها "تذكر" تحدث لما كانت النفس تعيش

في الوجود السابق على وجودها في البدن، وبالتالي فقد حصلت على العلوم والمعرفة في تلك الحياة الأولى/السابقة ولكنها فقدتها/نسيتها لما نزلت إلى عالم الجسد عقاباً لها، (هنا تبدو فكرة إقصاء الجسد) بسبب من خطيئتها، إلا أن "أوغسطين" وبالرغم من علمه بهذه النظرية لم يقبل بها كلية، بل رفضها واتجه إلى الرأي التالي:

إن موضوع التذكر ليس هو الماضي. وهو في هذا ينتقد أفلاطون بشدة. بل الحقائق الأبدية الخارجة عن الزمان، أي تذكر الحاضر، فالنفس (وهي صورة الله) تحتوي على الحقائق الأبدية، وعندما تتم لها معرفتها بفضل من الله. وهنا يكمن الإشراق الأوغسطيني. تتحقق مما كان موجوداً فيها ضمناً، وبهذا المعنى تغدو المعرفة تذكرًا، وبالتالي فإنه يحتفظ بلفظ "تذكر" مستبدلاً بمعناه الأفلاطوني معنى إشراقياً. (18). فبينما تعطي فكرة الخير للأشياء حقيقتها الممكن معرفتها وللذهن القدرة على المعرفة لدى "أفلاطون" وكأنه يريد أن يقول لنا أننا لن نعرف أبدا حقيقة الشيء، فالخير يبقى مجرد قيمة، يذهب أوغسطين" إلى أن الإنسان يعيش الحقيقة في الحاضر لأن نصفه الإلهي فيه/ النفس Anima تجعله يعايش الله/ الكلمة La Parole، هذه النفس التي لم تحصل على وجودها إلا بعد حلول الكلمة فيها يقول: كونتها، لا عن حاجة، بل بملء جودتك وصلاحك أعطيتها الوجود وأوجبت عليها شكلاً، ولم تزددكم كمالاتاً أو فرحاً". (19). وهاهو التفسير الوحيد والأصيل للاعتقاد الإشراقي: "ولن أقوله إلا بوحى منك أيها الحقيقة عينها في حين أن

كل إنسان كاذب، الكذاب ينطق بما في باطنه، أما قائل الحقيقة فلن يتكلم إلا منك". (20).

ولكن القول بنظرية الإشراق الأفلاطوني تجعل الحقيقة مرجأة، ومؤجلة دائماً لأنها مرتبطة بالعالم العلوي، في حين الإشراق الأوغسطيني هو إشراق معاصر (معاصر للنفس/الكلمة) تعيشه النفس في الآن/ الحاضر وبالتالي فالحقيقة هي أيضاً حاضرة في النفس.

التاريخ المتناهي: في مقابل التاريخ اللانهائي.

يتحرك التاريخ في نظر "أوغسطين"

تحركاً تقديمياً/ غائياً. لماذا؟

لو طرحنا هذا السؤال على "أوغسطين" بالذات لأجابنا بالإيجاب، ذلك أن فكره لا يخلو من الاعتقاد بتصنيف الزمن إلى حقبتين: زمن الظلمات وزمن الأنوار/ النور، زمن الشهوات هو زمن الظلمات ويسميه "أوغسطين" بالزمن المندس، وزمن الأنوار الإشراقية/زمن السعادة هو ما يسميه بالزمن المقدس، ولا يبدأ هذا الزمن إلا مع ظهور "الإرادة الصالحة" في التاريخ، هذه الأخيرة هي التي تضمن بقاء النفس الإنسانية إلى الأبد، بأن تعمل صالحاً يقول: "إلى بيت الرب نذهب...هناك تعد لنا الإرادة الصالحة مكاناً". (21).

إن غاية "أوغسطين" تتضح بكل معالمها، بدون أية شوائب فمن الزمن المندس إلى الزمن المقدس هناك خيط رفيع يربط بينهما، ولكن مع تسجيل قفزة نوعية بفضل تلك الإرادة الصالحة. هذه الإرادة الصالحة يقودها العقل، لأن العقل هو مصدر النور والضياء الذي عليه بلوغ الحقيقة الثابتة، اللا متغيرة، وهذه الحقيقة هي الرغبة

الشديدة في الوصول إلى الغاية التي هي الثالوث المقدس، علة الوجود، ولكن ما المعنى المجرد الذي يأخذه مفهوم الغاية إذا كان الأمر كذلك؟ الغاية/غائية Finalité بالفرنسية ومن الإنجليزية End وتعني ما لأجله وجد الشيء، فهي الحد النهائي الذي يقف عنده العقل، وتطلق على الغرض المسمى علة غائية كما تطلق على كل مصلحة أو حكمة تترتب على الفعل. ومبدأ الغائية Téléologie هو إحدى مبادئ العقل الذي يرى أن كل موجود يفعل لتحقيق غاية ما. ⁽²²⁾ بالتالي وحسب هذا التحليل المعجمي نجد أن التاريخ يسعى لغاية واحدة هي سعادة الإنسان مهما كانت تمظهرات العقل تصبو إلى أهدافها، فسواء كان العقل يشترك أو يريد أو يسعى، فلن يغير ذلك من شيء وحتى إن كان يبكي ويتحسر، كل فكل ذلك لا يعدو سوى أن يكون وسيلة من وسائل بلوغ الغاية المنشودة.

يفترض مبدأ الغائية ومن منطلق أن هناك نوعا من التطابق بين الغاية والنهائية، وإذا كانت الغاية تفترض نوعا من النهائية فإن النهائية هي غاية التاريخ في نظر "أوغسطين" لأنه لما كانت هذه "الإرادة الصالحة" تسعى إلى رصد كل ما هو خير، فإنه لابد من أن يكون لعملية الرصد هذه نهاية وهذه النهائية ستكون بالتالي هي آخر طرف في حبل التاريخ Le dernier bout de l'histoire. لا شك وأن هذه "الإرادة الصالحة" لن تتجسد إلا في بشر متحققين بذواتهم ولكن ما هي طبيعة هذه الإرادة؟

زيادة على أن إرادة البشر ستكون صالحة إلا أن الصلاح سيكون مقترنا بالمنفعة، لأن البشر لو لم يعلموا بأن هناك نهاية لهذا التاريخ/غاية

(السعادة الأبدية) لما عملوا صالحا، ولكن الصلاح لم يبدأ إلا مع المسيحية، أي مع بداية إضفاء قيم التسامح، والخير، العفو والمساواة.

إن الارتقاء إلى مدينة الله هو المسعى الأساسي، والغرض الأخير، وبهذا يقع "أوغسطين" في فخ نهاية التاريخ، قبل "هيجل"، رغم أن "هيجل" وقع فيها على الأرض، فهل النهاية الأوغسطينية هي نهاية العالم المادي وحسب، مع استمرار للعالم الروحي الخال من المادة؟

لا شك أن ذلك هو المسعى الرئيس الذي تهدف إليه فلسفة "أوغسطين" الإشرافية، فأفكار الخلاص، والاتحاد بالإله، والتخلص من المادة ما هي إلا أفكار تلغي من قاموسها كل اقتران للإنسان بالمادة، زيادة على أن الاعتقاد الفلسفي بخلود الروح تزكية للمسيحية كدين، وبالتالي يقول "أوغسطين" "...ينسى ما وراءه ويتوق إلى ما قدامه". ⁽²³⁾ ثم يتساءل "متى أصل إليها" (أي إلى ينبوع المياه الحية). هذا ما شكل حسب اعتقاد "أوغسطين" ضرورة التخلي عن الماضي، لأن الماضي زمن مدنس، ومظلم، أما المستقبل ففيه انفتاح على الأمل، المستقبل هو الذي تتحقق فيه سيرونة ذات الإنسانية ورغبة الوجود، فالوجود كوجود خير يتحقق في المستقبل لا في الماضي، ولكن كيف يحقق الإنسان ذاته في هذا المستقبل و يبلغ الخلود؟

لن يكون ذلك إلا بمختلف أشكال التعبير عن الندم، وإبداء الضعف والتحسر: "إنه يتحسر ويبيكي منتظرا فداءه ودخوله في مصاف الأبناء، يبكي عليها (على مدينة الله)... وفي سبيلها يسعى جهده". يصنع الفرد التاريخ، بمختلف أشكال الشعور الإنساني النفسي، لهذا فإنه يبدو أن التاريخ يمزج بين ما هو نفسي، وما هو حدثي فلا

فرق بين تاريخ تطور العوامل النفسية وبين تاريخ تطور الأحداث، ولن يكون هناك تاريخ إلا في الحياة الأخرى لأن السعادة هي في المستقبل والمستقبل هو التاريخ وبما أن التاريخ الحالي هو تاريخ الحالات الشعورية من ندم وبكاء وتحسر... فالتاريخ الحقيقي أو التاريخ السعيد هو تاريخ الحياة الأخرى التي ينشدها "أوغسطين"، ويندفع الضعفاء إلى الأمام متحمسين، من جراء مخاوفهم، باحثين عن الإله، غايتهم الوحيدة، ومنتهى كل أفعالهم، إنهم المختارون الضعاف، يقول "أوغسطين" "رأيتهم أيها المختارون، يا ضعاف العالم، يا من كفرتم بكل شيء في سبيل الرب، اقتفوا آثاره... سيروا بفرح وراءه وليسطع نوركم في الفلك...".⁽²⁴⁾ واضح إذن تمام الوضوح هو توجه إرادة الضعاف من الناس للتاريخ نحو الأمام ولكن كيف يمكن لإرادة ضعيفة أن تسيّر التاريخ ؟

يبدو أن الطبيعة الثانية للإرادة الصالحة التي ينادي "أوغسطين" بالتخلي بها هي أنها إرادة ضعيفة، وهي لا تسيّر التاريخ إلا عندما تتحد وتشكل مجموع إرادات ضعيفة أو إرادة الضعف الكلية، و الضعف هنا لا يؤخذ في فهمه المادي، وإنما هو في نفس الوقت المقام الذي يقصده "نيتشه" تماما بـ"إرادة القوة" على الصورة المقلوبة كليا، بالعكس، ولهذا جاء نقده له لاذعا، فإذا كانت "إرادة القوة" هي إرادة الإبداع والخلق واكتشاف الذات ومن ثمة تجاوزها والوصول إلى فجر الذات L'aurore du soi مما يجعل هذه الإرادة تدفع بصاحبها يصنع تاريخا فرديا، لا متناهيا، مع افتراض موت الإله، فإن إرادة الضعفاء تتميز بكل الصفات التي تنبذها "إرادة القوة". النيتشوية. إنها إرادة تخلق الإله، تجعله

مسعاه وملاذها الأخير، ولهذا فهي تحمل على كل الأقوياء والاصطفائيين الأخيار من الأقوياء، والمبدعين. إن إرادة الضعفاء هي إرادة ضعف انحطاطي تتميز بالتذرع والتقليد لقيم المسيحية، بينما يمشي "زرادشت" مرددا كلماته القاسية: "من أراد أن يكون خلاقا/مبدعا في الخير والشر فعليه أن يتجاوز التقليد ويتجاوز القيم، ويبدع قيما خاصة به".⁽²⁵⁾

لا يمكننا بأي حال أن نفصل بين دراسة "أوغسطين" و"نيتشه" بل على كل قراءة أن تعرض لنقد "أوغسطين" أن تستعين بـ"نيتشه" إذ أنه في الحين الذي يرى "أوغسطين" أن الإله غاية الإنسان فإن "نيتشه" يقتل الإله ويبعده عن نطاق التاريخ، لقد أصبح التاريخ مع "نيتشه" أنثروبولوجيا، إنسانيا، يتيم الأب/الإله، بينما نجده عند "أوغسطين" ثيولوجيا.

تلك هي سمة التاريخ الأوغسطيني: تأليه التاريخ، ولا خير في تاريخ لا يعرف الإله، أو على الأقل يبحث عنه، كما أن الفرح الذي ينتهي إليه "أوغسطين" هو فرح بالإله على خلاف الفرح النيتشوي الذي هو فرح بعشق القدر Amor Fati فرح بموت الإله.

إن التاريخ النيتشوي تاريخ دائري بينما التاريخ الأوغسطيني تاريخ خطي، متناه، في مقابل التاريخ النيتشوي الدائري الأبدي، الذي تتشابه حركاته مع حركات النرد Le coup de dés، إنه تاريخ مرجح، فرح في مقابل تاريخ مأساوي يصور الإنسان في أبشع صور الانحطاط، تاريخ عبثي في مقابل تاريخ غائي، منته والنهاية تتوج باستراحة الله والتي هي مرحلة القدوم في آخر الدرب وما الراحة إلا نهاية الزمن، ونهاية الزمن هي نهاية التاريخ.

الهوامش والإحالات:

1. أوغسطين، الاعترافات، نقلها إلى العربية: فوزي يوحنا الحلو، دار المشرق، الطبعة الثالثة، بيروت، 1986، ص 316.
2. المصدر نفسه 304.
3. يمكن العودة إلى كتاب نيتشه، "هذا هو الإنسان" وكتاب "إرادة القوة" في كل الطباعات، بحيث نجده يتناول مسألة نقد المسيحية بما هي أحد مظاهر الانحطاط.
4. Nietzsche : par-delà le bien et le mal – traduction d'Henri Albert – Librairie Générale Française – 1991/ 2000 – Paris – P 132 - §50.
5. أوغسطين، المصدر نفسه، ص 295.
6. المصدر نفسه، الموقع نفسه.
7. المصدر نفسه ص 299.
8. المصدر نفسه، الموقع نفسه.
9. المصدر نفسه، الموقع نفسه.
10. المصدر نفسه، ص 300.
11. Nietzsche : La généalogie de la Morale – Traduction d'Angel Kremer-Marietti – Union générale d'édition – 1974 – P 217.
12. أوغسطين، المصدر نفسه، ص 327.
13. المصدر نفسه، ص 298.
14. المصدر نفسه، ص 303.
15. المصدر نفسه، ص 296.
16. حسين حرب، أفلاطون (الفكر اليوناني)، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 1980، ص 127.
17. أفلاطون، الجمهورية، ترجمة: حنا خبان (ب ط)، (ب ت)، ص 299.
18. حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، دار التنوير، (ب ط)، بيروت، 1981، ص 19.
19. أوغسطين، المصدر نفسه، ص 297.
20. المصدر نفسه، ص 318.
- ❖ ليس المقصود هنا بزمن الأنوار تلك المرحلة الفكرية التي سادت خلال القرن الثامن عشر مع فلاسفة الأنوار والتي طبعها السؤال : ما هو التنوير؟ وإنما التنوير هنا هو زمن الإشراق الفلسفي، الذي يأخذ بعد الزمن المستقبلي بعدا للأمل والإمكان، والتمكن من تحقيق التحرر العقلي، وبلوغ العقل، غاياته المتمثلة في تحقيق اللذة الأبدية والخلاص بالتالي.
21. المصدر نفسه، ص 301.
22. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، (ب ط)، 1954، مادة: غاية.
23. أوغسطين المصدر نفسه، ص 303.
24. المصدر نفسه، ص 309، 310.
25. أنظر: نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، بيروت، 1938.